٥٠

مات.. فشفي من أحزانه !!

وبأكثر مما كان يحلم أو يتمنى خرج الشيخ فريد هنيدى من السجن متجهًا إلى القصر الجمهورى لمقابلة مع الرئيس الجديد ضمن نخبة من رموز المسجونين.

ولما عاد إلى المأمومين أحبابه ظلوا على اصطفافهم خلفه بعد تمام الصلاة وهم فى لهف إلى حديثه المعهود بعد العشاء، فأى جديد ترى سيقدمه شيخهم بعد هذه الغيبة؟.. ووجدوا أن جديده كان كلامًا كالنواح، فهو ينعى الزمن الذى اضطر فيه المصريون إلى قتل حاكمهم، وراح يتساءل عن الطرف المخطئ فى الخروج عن طوع الآخر: الشعب أم الحاكم؟ فقال إن الشعوب لا تخرج عن طوع حكامها إلا إذا انحرف هؤلاء الحكام بعيدًا عن طريق الحق والعدالة، فالعدالة إذا انعدمت انتشر الظلم كالوباء، وكم من وباء لا يقضى عليه إلا بحرق جثث الموتى ومتعلقاتهم.

وانتهى فى حديثه القصير إلى القول الفاصل بأن أسوأ الناس هم هؤلاء الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، وكم تزداد مصيبة من يفعل ذلك إذا كان حاكمًا.

وفهم الناس ما يصبو إليه شيخهم من إسقاط وإحالة وأيقنوا أنه عافت نفسه أن تنهش لحم رئيسه ميتًا فيكرهونه. وانتظروا أن يروى لهم بعض ما عاناه فى سجون السلطة، أو بعض ما لمسه فى لقاء الرئيس الجديد لكنهم وجدوه لا يقترب من هذه المنطقة. بل وجدوه على غير عادته صامتًا، سارحًا، شاردًا، وفجأة قال للقريبين منه:

- «لى صديق صدوق فى البلد، قلبى يأكلنى من أجله، تركته قبل السجن مسجونًا فى مرضه، عن إذنكم سأخطف رجلى إليه».

* * *

obeikan.com

وفى البلد وجد رأفت مستلقى على سريره، دنا منه، أمسك بيده، تهلل وجه المريض بفرحة غامرة:

ـ «حمدًا لله على سلامتك يا شيخ فريد. تمنيت ألا أموت قبل أن أراك وأوصيك على ولدى حسن وزوجتى نادية»

ـ «سوف ينقذك الله من سجنك كما أنقذنى من سجنى وتربى حسن بنفسك»

ـ «حسن؟.. لم يكمل العام ونظراته المصوبة نحوى مليئة بالكلام»

ـ «ربما يلومك لأنك أتيت به إلى الدنيا متأخرًا عن دفعته»

ـ «له الحق .. فوالده لا يصل إلا متأخرًا»

لم يعلق الشيخ فريد على هذه العبارة التى يقصد بها رأفت كل حالات التأخير والتأخر فى حياته، فليلى بنت العم وتوأم الروح اختارت زوجًا آخر فضلته على ابن عمها، وكان أن تأخر ابن عمها بمحض إرادته فى اللحاق المبكر بقطار الزواج ولم يمسك به إلا بعد أن اقترب من الخامسة والثلاثين. ثم لم ينل سعادة الأبوة فتأخرت عنه خمس سنوات من زواجه، أما ما تأخر فى تحقيقه حقًا فهو قتل البلهارسيا اللعينة منذ أن هاجمته صغيرًا، فما قاله الأطباء المعالجون هو أن آثارها كانت كامنة بداخله وصارت تطل عليه الآن دفقًا دمويًا غزيرًا ترسلها دوالى المرئ.

ولم يجد الشيخ فريد إلا أن يحرفه بعيدًا عما يقصده، فقال له:

ـ «من قال إنك لا تصل فى موعدك، يكفى أنك بكرّت بمغادرة الخطاطبة»

لمعت عينا رأفت قبل أن يقول:

«آه.. الخطاطبة؟.. لو هاجمنى النزيف هناك لكنت قد نلت موتتى غريبًا»

وراح يعيد على صديقه ما سبق أن قال له عن النزيف عندما هاجمه أول مرة وكيف تحركت «البلد كلها» فأتوا له بعربة الإسعاف وراحوا يتسابقون فى التبرع له بدمائهم، وحكى كيف تكرر هذا الموقف فى الزيارة الثانية للنزيف الملعون، فقال له الشيخ فريد:

ـ «أنجاك ربك من غزوتين فاستعد للثالثة و...»

ـ «أعرف.. والرابعة والخامسة إلى أن أموت مثل عبد الحليم..»

وانصرف رأفت إبراهيم فى حديثه اللاحق إلى ذكر ما يعرفه عن مرضه من معلومات كان يتابعها طوال معاناة عبد الحليم حافظ أشهر مريض البلهارسيا فى تاريخ هذا الداء اللعين، ثم وهو يشير إلى نفاد مدخراته إلا قليلًا، وإشفاقه على زوجته نادية وولده حسن وكيف سيمضى بهما الزمن القادم بلا سند أو عائل.

تنهد الشيخ فريد مؤمنًا على كل ما قاله صديقه، ثم قال:

ـ «ومع هذا، فليس لنا إلا أن نأخذ بالأسباب..»

* * *

والأسباب التى كان يقصدها وقصدها الشيخ فريد هى طرق أبواب الأطباء لترويض هذا الوحش الهائج داخل جسد صديقه رأفت المسكين.. وفى الإسكندرية أقبلت عليهما نسائم ذكرى أيام التلمذة التى ما زالت محفورة فى القلب والوجدان وهما يجوبان شوارعها بحثًا عن طبيب بعينه ثم معمل بعينه.. وفى محطة الرمل اختلفت صور المرئيات أمام عينى رأفت وداخل عقله عن مثيلها منذ خمسة عشر عامًا مضت.. الناس.. والمركبات.. والشوارع ورائحة الهواء، وواجهة تريانون، وجلستهما الحالية به مقارنة بجلستهما مع المرحوم طاهر زين الدين.. ما الذى حدث؟.. ومن الذى تغير؟.. هو أم العالم حوله؟.. أم أنه المرض الميئوس من شفائه؟.. أم أن مرارة هذا اليأس هى التى صبغت وجدانه بالعناء؟

ومن حال إلى حال أسوأ، ومن طبيب إلى طبيب، ومن خوف إلى خوف راحا يتحركان.. الشيخ فريد يستمد من إيمانه روح الأمل، ورأفت فى كل مشوار يهمس إلى ربه راجيًا:

ـ «لطفك يارب.. أجّل النزيف حتى أصل إلى زوجتى نادية وصغيرى حسن»

وفى كل مشاويرهما العديدة وأماكنها المتعددة بالإسكندرية لم يحدث أن ذكّر أحدهما الآخر بشىء مما كان فى هذه الأماكن: حديثًا.. أو لقاء.. أو طُرفة. فذكريات الماضى التى كانت لشابين أحدهما مفتول العضلات والثانى يبدو معافى وهما يجوبان مراتع اللهو البرىء صارت الآن واقعًا أليمًا لكهلين أحدهما مبتور الذراع والثانى يتهادى عليلًا، فأين

تلك البهجة الصافية التى تحنو على حلو الذكريات فتأتى بها لعلها تمحو بعض ما عندهما من كدر؟

وفى قطارهما القديم الذى تهالك شأن راكبيه القدامى، وفى إحدى رحلات العودة من ثغرهما الحنون مرقت إلى خيال رأفت صورة صديقه البطل فريد وهو يغازل الفتاة ذات العيون المدهشة قبل حادث الجمل الذى أكل ذراعه، فابتسم فى إشفاق لحال ثلاثة من الأصدقاء تحولوا إلى أشلاء:

ـ «والفاعل جمل تصدى لفريد، وسرطان اجتاح طاهر، وبلهارسيا تنهش كبدى فى نهم».

وما بث أن غابت ابتسامته المريرة وانكفأ على نفسه ممسكًا بنهنهة بكاء مكتوم تتردد فى داخله، إلى أن سمع فريد يحدثه:

ـ «ماذا بك يا رأفت؟ أخرج من حزنك، فالله رحمته واسعة»

ـ «أحس أنه لا طعم للحياة فى فمى، كل شئ صار ماسخًا حولى.. الفضاء ليس فسيحًا، والجو صار خانقًا.. لا نسمة هواء ولا ومضة أمل.. ولا تباشير فرح. أم أنها تباشير الموت يا شيخ فريد؟»

وكما يجب أن يفعل، لم يتمش معه الشيخ فريد فى هذه النغمة المتشائمة، فتحول بحديثه إلى منحنى آخر:

ـ «وتباشير العهد الجديد تدعو إلى التفاؤل، الرئيس يتحدث عن طهارة اليد، وقال على الملأ إن الكفن ليس له جيوب.. مصر لن تُسرق بعد اليوم يا رأفت، وسنجرب أن نكون أثرياء بإمكانياتنا لأول مرة.. تفاءل يا رجل»

عادت ابتسامة الإشفاق إلى وجهه:

ـ «أتريد أن تقنعنى أن ولدىْ النحال سيكفان عن السرقة؛ لأن الرئيس الجديد أصدر قرارًا بمنع السرقة؟.. النَحّالون يا شيخ فريد سرت سمومهم فى جسد الأمة سريان السرطان فى جسد طاهر والبلهارسيا فى كبدي.. اذهب إلى الخطاطبة لترى بنفسك أن مزارع اللصوص تزداد وتتلاصق.. إنهم متمسكون بامتصاص نخاع عظامنا كالجمل

الذي تمسك بتكسير عظامك.. الرئيس الجديد ورث قوافل من الجمال الناقمة والسرطانات الهائجة وديدان البلهارسيا الناهشة.. فليقل ما يقوله.. المهم: الفِعْل.. ماذا سيفعل؟»

* * *

وفى الرحلة المضنية للعلاج المرهق قسّم الشيخ فريد وقته بين مسجده فى سيدى بشر وبين صديقه رأفت فى البلد، وهاجت نفسه بذكريات موحشة عندما طلب الطبيب نقل صديقه الغالى إلى مستشفى المدينة القريب لإمداده بالدم والمحاليل، ففى هذا المستشفى ضاع منه طريق وعثر على طريق آخر بعدما بتروا ذراعه، ولم تمض ليلة واحدة حتى أيقن فريد أن رأفت فى سبيله إلى وداع طريق الحياة، فها هو يناديه بصوت واهن:

ـ «خذنى إلى المنزل.. خذنى إلى حسن ونادية.. لا تتركنى هنا»

وفى منزله وقرب سريره ظل الشيخ فريد بجانبه يقرأ له القرآن بصوت مسموع مخضب بالدموع وحسن الصغير يجوب الحجرة متساندًا على الأثاث مجربًا الخطو للحظات بمفرده، ثم لائذًا إلى الحائط قبل أن يسقط على الأرض، وأمه ترقب صغيرها الذى يعلّم نفسه السير بحسرة من ترى أن وليدها فقد أكثر لحظات التدلل متعة وهو لا يرى من والديه من يشجعه على جسارته ويغبطه عليها.. وأنها ورجلها الغائب عن الدنيا فقدا مع وليدهما تسجيل هذه اللحظات المرحة فى ذاكرة الزمن حتى يروياها لصغيرهما عندما يكبر..

سمعته يغمغم بكلمات مبهمة.. أرهفت له السمع، فهمت ما يقوله، أشارت للشيخ فريد أن يوليها اهتمامه، صدّق الله العظيم وأغلق المصحف وانتبه لها.. أرسلت إليه وجهًا طافحًا بالحزن والرجاء ثم حديثًا هامسًا بالحيرة والدهشة:

ـ «سمعته يتحدث مع طاهر زين الدين، وواحد اسمه زكريا مسعود»

ألقى الشيخ فريد بجسده فوق السرير واحتضن رأس صديقه بيسراه وراح يهدهد على خده بيمناه المبتورة.. ويناديه بصوت حنون سائلًا عما إذا كان يريد شيئًا.. وكأنما أفاق على صوته فصوب إليه نظرة ناصعة ومعها ابتسمة ودودة ثم أدار وجهه باحثًا عن نادية وتهلل

لمرآها ثم أرسل لها بمثلها وراح يدير وجهه فى كل الأنحاء، ففهم الشيخ فريد مـا يبحـث عنه:

ـ «**هات الولد.. حسن.. هات حسن**»

أسرعت فرفعت إليهما وليدها فاستقر على صدر أبيـه وراح الشـيخ فريـد يمكنـه مـن تقبيله فى لحظات رأى أنها قد تكون الأخيرة، فانسحب من الحجرة هامسًا لنادية بما يفضله من البقاء قربهما بالصالة، ولم تفهم نادية إلا بعد حين أن صديق زوجها الفطن خصـها بـما يجب أن تخص به من انفراد أخير تمسك به كلمات الوداع فى لحظات العمر الأخـيرة لـزوج أحسن منزلتها فى نفسه وفى بيته وفى قلبه الأكثر اتساعًا من عالم ضاق به وشقه دون مرح.

وعلى أحد حوائط الصالة راح الشيخ فريد يتأمل صورتيهما المتجاورتين:

الأسطى إبراهيم عبد الواحد، وزوجته أم رأفت.. وهو يتساءل:

ـ «**أيهما أشق على النفس: أبوان يعيشان حتى يشهدا موت ولدهما.. أم ولد يفقد والـده قبل أن يهنأ بقدوم حفيده المنتظر؟..**»

ولأن الأسطى إبراهيم عبد الواحد وزوجته الطيبة كانا قد عرفا كل مـا دار بـين ابـنهما وأهل حبيبته فى القاهرة، فقد صارت عبارة الأب الملتاعة دومًا:

ـ «**لو حرموك من الزواج بها، فلماذا تحرمنى مـن حفيـد يـا ولـدى؟، تـزوج يـا رأفـت قرناؤك أولادهم فى الإعدادية.. لو لم تنجب لى ولدًا ستنقطع ذريتى مدى الحياة**»

وكان الشيخ فريد يحاول أن يتذكر ما الذى كان يرد بـه رأفـت المسـكين عـلى المرحـوم والده، وقبل أن يمسك بهذا الرد شقت صـمت السـكون حولـه صرخـة عاليـة أرسـلتها نادية، فاندفع نحو الحجرة فى هلع وهو يتفادى السقوط بعد ما تعثر فى جلبابه..